أولاً : الوعى الجمالى والبيئة

د . وفاء إبراهيم (*)

تمهيد :

لقد أصبحت مشكلة البيئة وما تعانيه من المشكلات التى صارت تشغل الأذهان بشدة وبحدة، والمدهش أن الإنسان العادى أصبح يشعر بمخاطر ما حدث للبيئة من تلوث وتدهور إلى الدرجة التى يصيح فيها مستغيثا بالعقول والنفوس الطيبة أن تهتم بما آلت إليه حال الأرض، أمنا، ولعلى أسمع الصيحة فى يومى العادى عدة مرات من أبسط الناس حولى مثل البواب الذى يعانى من كثرة الأتربة والحرارة، وعامل النظافة، وعامل محطة البنزين، وبائع الخضار والفاكهة، والجزار، وبائع الفراخ، كلهم يعانون من التلوث والحرارة ويرددون أين المناخ المعتدل، الدنيا اتغيرت، ولقد سمعت ذروة هذه الصيحة من خلال "أمراة انجليزية"، كانت من بين المشتركين فى مظاهرات المعارضين لزيارة الرئيس الأمريكى جورج بوش إلى إنجلترا، حيث قالت : إننى أكره بوش لأنه لم يوقع أى معاهدة للحفاظ على البيئة، تأملت عبارتها، ووجدت كيف إنها تعبر وبإيجاز شديد، وبحدس إنسانى عميق، أكثر كثيرًا من كل المعانى والدلالات التى وجهت إلى بوش بإنفعال مؤمن ثم لم تؤثر، أما عبارة المرأة الإنجليزية العجوز فهى تتأسس على مبدأ خطير وهو "العداء للحياة والجمال والحب"، ومن هذا المبدأ ذاته التى تتأسس عليه العبارة، تتبدى صورة بوش الحقيقية وأى شخص مسئول عن تلوث البيئة وتشوهها، ويتكشف أيضا جوهر القوة العظمى التى قدر لها أن تقود العالم الآن.

وبذلك تأتى أهمية عبارة السيدة الإنجليزية، حيث وضعت ببساطة يدها على جوهر المشكلة التى تواجه الأرض، وهى مشكلة البيئة، والتى تتعرض وفق تقارير علماء الإيكولوجى، ووفق توصيات المؤتمرات والباحثين إلى أخطار

جسام تقترب إلى حد الكارثة، وفى الحقيقة إن مشكلة البيئة ليست مقتصرة على علماء البيئة المتخصصين، لأن البيئة من الموضوعات الشاملة والمعقدة، حيث تمس جوانب متعددة من حياة الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية والجمالية، ولعل أصل الكلمة الإغريقى ينبئ بذلك، فكلمة "إيكو" تعنى "البيت"، ويشتق منها علم البيئة أو الإيكولوجى، وبذلك يتضح أهمية، بل وضرورة مشاركة كل فرد فى البيئة / البيت، للحفاظ عليها.

ولقد أدرك العلماء مشكلة البيئة وما تتعرض له من أخطار فهى مشكلة إنسانية فى المقام الأول، ولذلك تحتاج لحلها عدة تخصصات تتكامل وتتفاعل فيما بينها، تبدأ من علم الحياة "البيولوجى" إلى الفلسفة، وفلسفة الجمال خاصة من حيث كونها الفرع القادر على التعامل مع تربية المواطن جماليًا، ومن ثم إعادة قانون التوازن بين الإنسان والبيئة الذى كسره الطموح ذى البعد الواحد للإنسان.

إذ استيقظ العالم ذات يوم على أن التلوث الناتج عن مخلفات تصنيع السلع والخدمات، وعن تراكم الكيماويات السامة الناشئة عن مبيدات الآفات والمخصبات، تسبب الأذى للناس والبيئة التى يحيون بها، ثم بدأ الوعى خطوة خطوة بما أل إليه سلوك الإنسان فى تلويث البيئة واستنزاف مواردها الطبيعية، تحقيقًا لقوته وهيمنته، وقد كان محرك هذا الطموح هو شعور "الامتلاك" لا شعور "الحب"، والفارق كبير بين شعور "الامتلاك" وشعور الحب، ففى حالة الشعور بالامتلاك يتعامل المالك مع ما يمتلكه بوصفه "شيئًا" ميتًا لا يشعر، ولابد أن يخضع لهيمنته وسيطرته، وتحقيق أهدافه ومصالحه، لأن جوهر العلاقة هى "الكم"، ولابد أن يحصل على أكبر "كم" منه بكل الأساليب التى قد تصل إلى حد العنف، وأيضا الأرهاب، أرهاب البيئة التى تئن بحارها وأنهارها الملوثة، ويختنق هوائها لنقص الأوكسجين، وتغيب زرقة سمائها وراء الدخان والسحابات السوداء، ويرتفع ضغطها من ارتفاع حرارة مناخها، نتيجة ثقب اخترق أحد قلوبها "الأزون". أما شعور الحب فإن جوهره "الكيف"، والكيف يتخذ أساليبًا مختلفة يراعى فيها الجمال، ويعى قانون "التوازن" بين الإنسان

والبيئة، ومن ثم يتجه إلى المستقبل ازدهارا، لأن "الحب" هو طريق الجمال والإبداع فى الطبيعة والإنسان، ولذلك نقول: أيا ترى هل نحن فى دورة "الكره والقبح"، التى قتلت "الحب والجمال". هذا هو المعنى الجوهرى لعبارة السيدة الإنجليزية العجوز.

أولاً : محاولة لتحديد دور الوعى الجمالى فى البيئة :

وفى الحقيقة إن اهتمامى بمشكلة البيئة يمتد إلى سنوات عديدة مضت، ولقد قمت بالفعل بجمع مادة لا بأس بها، ولقد صورت أبحاثًا كثيرة عندما كنت فى أمريكا مثل الثقافة والبيئة، وعلاقة الإنسان بالأرض ومردودها على جمالياته وأخلاقه وقيمه القانونية، وكذلك عن الجوانب النظرية لإستطيقا البيئة، وكتب أخرى بالعربية عن مشكلات البيئة سأورد أسمائها فى آخر البحث، ولعلى كنت آمل فى تقديم بحثًا كبيرًا عن استطيقا البيئة، وهو أمل أتمنى أن تساعدنى الأيام أن أنجزه، وليكن هذا البحث الصغير بذرة البداية التى أتمنى أن تصبح شجرة الجمال الذى يبذر أوراقه وثماره على الأرض من جديد.

ومن المهم أن أشير إلى أن الأبحاث والدراسات والكتب التى قرأتها عن هذا الموضوع أقرت جميعها بالجرم البين الذى قام به الإنسان تجاه البيئة "Eco" التى تعنى البيت، وأوضحت المؤتمرات المختلفة عن البيئة ما تتعرض له من أخطار تصل إلى حد الكارثة بالأرقام والإحصاءات.

على أية حال سوف أركز هنا على دور الوعى الجمالى فى "العلاقة" التى بين الإنسان والبيئة، لأوضح أولاً الجانب التطبيقى والنفعى للعلوم الإنسانية، وثانيًا على أهمية الدور الذى يقوم به الوعى الجمالى فى هذه العلاقة "المشكلة"، لأن ما حدث من أخطار ومشاكل للبيئة هو نتاج سلوك الإنسان الذى ينبئ بدوره عن خلل فى العلاقة، ومن ثم ما ينبغى أن يقدم من حلول من قبل التخصصات المختلفة، إذ لابد أن يوضع فى الاعتبار تصحيح هذه العلاقة لاستعادة تناغم الأرض والإنسان، فصورة المستقبل فى ضوء ما حدث للبيئة تنبئ عن دمار لأمنا الأرض، وهنا نتساءل بداية ما هو دور الوعى الجمالى فى

هذه العلاقة المهمة بين الإنسان والبيئة التى يعيش فيها صغرت أم كبرت.

ولكى يتضح موقع الوعى الجمالى فى هذه العلاقة التى بين الإنسان وما يحيط به من بيئة، نقول : إن البيئة هى الدائرة التى نعيش فى وسطها، وفعليًا هى ليست دائرة واحدة، إنما هى عدة دوائر، كيف تم ذلك سنبين الأمر بالتفصيل، فهناك الدائرة الأولى الأساسية وهى المادية بعناصرها المختلفة من بحار، وجبال، وظواهر طبيعية، وسهول وهضاب وغابات ونبات وحيوانات، ثم الدائرة النفسية التى يختص بها الحيوان بشكل عام والإنسان بشكل خاص، ثم الدائرة الاجتماعية الثقافية وما يتصل بها من اقتصاد وسياسة وقوة عسكرية، هذه الدوائر ليست منفصلة، لأنهم يمثلون المجموع عن طريق الارتباطات والوصلات والجسور فيما بينهم، لأنه إذ لم يكن ثمة وصلات وارتباطات، فإنه من الصعب أن نفهم معنى إن الثلاث دوائر هى مجموع ما يحيط بنا من بيئة.

إذن كيف يتم الاتصال والانتقال بين هذه الدوائر الثلاث ؟ إن الانتقال والاتصال بين الدوائر – بداية – هو الذى يرتب الدوائر ويعيد تنظيمها، ومن هذا الترتيب والتنظيم سيتضح أهمية الوعى الجمالى، وفاعليته ودوره، فإن الدائرة الأولى والقوية والتى تعلن عن نفسها بكثافة وحدة هى دائرة الطبيعة المادية، وهى تفرض نفسها كما هى، دائرة غفل لم تتشكل بعد وهى تؤثر فى وعى الإنسان الذى يبدأ فى التشكل نتيجة هيمنة هذه الدوائر وكثافتها فى مقابل رقة وضعف الوعى الإنسانى فى بدايته، ويبدأ ما يسمى "بالإيكولوجى" أى علم البيئة، هذا العلم الذى يفسر تلك الشبكة المعقدة من علاقات التأثير بين البيئة والكائنات الحية التى تعيش فيها، حيث تصب البيئة كائناتها فى قوالب معينة خارجية من حيث الشكل واللون والتكوين، وقوالب داخلية نفسية ما هى إلا انعكاسات الدائرة الطبيعية بكل ما فيها، بمعنى أن ما هو مادى أو طبيعى يتحول إلى مقابل أو معادل سيكولوجى، فنجد ابن الصحراء غير ابن الحضر وابن الساحل غير ابن المناطق الجبلية من حيث القيم والسلوك، فالإنسان الذى يعيش فى المناطق الساحلية يتميز بالخيال، وحب المغامرة، أما الإنسان الذى يعيش فى الصحراء فهو منغلق ويغلب عليه

الانعزال، والانطواء، ونجد ابن الحضر يميل إلى أن يسلك وفق قواعد معينة، ويمارس أنشطة صناعية، وحرفية خاصة.

ومع تطور وعى الإنسان وانتباهه إلى أهمية العلم والثقافة وتعقد علاقاته الإنسانية مع غيره من أفراد، وسماعه عن بيئات أخرى، يتحرك فى داخله نشاطه الخاص، هذه الدينامية الخاصة به، لها طبيعة "منطقية علمية"، حيث يعمل وعيه وفق الملاحظة ثم المقاربة، والتشبيه، فتولد لديه رغبة فى التأثير فى الطبيعة، وكشف إمكانياتها ومكنانها حتى تتسع به آفاق العيش وتمتد، هنا تنشأ الدائرة الاجتماعية الثقافية، لأن من المهم أن يتناغم مع رأى الآخر ووعيه، ويتفاعل مع زاوية نظره ثم يتوحد وجهتى النظر، لأن الهدف والغاية واحدة، وهى سعادتنا جميعًا، وتقدمنا وازدهارنا، وما لم تحدث علميات التوحيد والتفاهم لا يكون ثمة قدرة على التأثير فى البيئة .

بذلك يتضح أن مجموع "وعى الأفراد" فى الدائرة الثقافية والاجتماعية يلتقى عند قدر معين من مبادئ الاتفاق، التى يمكن أن نسميها "الخميرة" التى يبدأ منها التشكيل المستقبلى للبيئة حيث نقطة الأنطلاق – هى الدائرة – الاجتماعية الثقافية ولو دققنا النظر قليلاً فى هذه المسألة ستجد أن، مسألة "توحيد" أنواع مختلفة من الوعى حول موضوع واحد وهو التأثير فى الطبيعة – أى "الوحدة فى الاختلاف" – يحقق مبدأ جمالى معروف، وهو بدوره مسألة اتفاق على معايير وأحكام، ومقاييس، ومحكات وتوازنات لأننا فى هذه القضية سنتناقش حول : سنفعل كذا من أجل كذا، ونزيل كذا من أجل كذا، ونقيم كذا من أجل كذا، "وكذا" هذه هى ما هو مفيد نافع وجميل معًا، وأيضًا يعبر عن مصالح المجموع، لا من أجل مصلحة القوى فقط، هذا الاتفاق والتوافق الذى سيتحرك به ومن أجله "المجموع"، يمكن أن نسميه "الشكل" الذى اتفقنا عليه، وهو الشكل الذى يحتوى على قيمنا، وانفعالاتنا، ومشاعرنا، وهذا الشكل بدوره هو الرأى العام، والروح العام، والعقل الجمعى الذى فيه يتضح نوع من الحراك والانتقال من مستوى البيئة الخاص بما لها من مقاييس ومعايير تخص خصوصية جغرافيتها ومناخها ومجتمعها . . . و. . . و. . . إلى مستوى البيئة العام بما لها من أصداء التأثير فى أزمات وكوارث البيئة،

ولعل هذا الفهم لتلك الدينامية ولهذا التدرج من حركة الوعى الذى لابد دائما أن ينتقل فى نطاق واسع من الخاص إلى العام حتى يكون مشاركًا وفاهمًا لطبيعة هذا العالم العولمى .

ولكى يتم هذا "الشكل الضام للكل"، لابد من التقاء منظومة الوعى فيه ابتداءً من عمليات "التقبل العام"، إذا لابد أن "نتقبل بعضنا البعض"، حتى نستطيع أن نعبر عن روح المجموع، لأن "التقبل" بوتقه كبيرة، تصُهر عناصر كثيرة منطقية علمية، واجتماعية ودينية، وسياسية، وجمالية، ويحركها القدرة على الإعجاب المنزه عن الغرض، بملكات الآخر المختلف معى سواء فى مجالى أو فى مجالات أخرى، إعجابا بما يقدمه من مجهود فكرى أو علمى أو فنى أو رياضى.

هكذا نجد أن تنظيم الدائرة الاجتماعية الثقافية يبنى على معايير وقيم اجتماعية ثقافية مثل : الإعجاب والتجاوب والتقارب والتفاؤل الثقافى الأساس فيها "روح جميلة"، تستطيع أن تتفتح على الآخر، وترى إيجابياته ويكون فى مقدورها الاعتراف بها وضمها إلى ما تمتلكه هذه الروح من إيجابيات، وبذلك فإن "روح المجموع"، هى محصلة نهائية لانصهار مجموعة قواعد أخلاقية وجمالية اتفق عليها المجموع، وأهم القيم الأخلاقية تتمثل فى الذوبان فى الكل، وفى التفانى والتعاون والإيثار والغيرية، أما القيم الجمالية تتمثل فى مشاعر الصدق والنزاهة، والرغبة فى الإضافة المدفوعة بالحب نحو المجموع لتشكيل منظومة الحركة الإبداعية فى الواقع.

ثانيًا : أهمية التربية الجمالية

بذلك يتضح على نحو جلى أهمية تشكيل الدائرة الاجتماعية والثقافية جماليًا حتى نستطيع أن نشكل بها – بعد انتظامها جماليًا – أن نشكل الطبيعة ونقوم بالتأثير فيها بما يحقق للمجموع التقدم والرقى، ولذلك يتضح أهمية التربية الجمالية، لأن التربية الجمالية التى تؤدى إلى وعى جمالى تقرب المسافة بين المجموع الاجتماعى والثقافى مهما اختلفت عناصره، وتيسر عملية تضامنه، وتضامنه يغرى بالتجمع، هذا التجمع يمتلك بدوره

النزوع نحو تشكيل نفسه فى تشكيلات متناغمة تسلك وفق توجيهات ومعايير من إبداع الكل، لأن الآمر الجمالى أكثر فاعلية من الآمر الأخلاقى المعتمد على الممارسة الشكلية.

وبذلك فالتربية الجمالية هى التى تحقق الارتباط والتواصل فى الدائرة الاجتماعية الثقافية، وهى التى تخلق "رأى عام" من وجهات نظر مختلفة، وهى أيضا التى تحدد "الهيئة" أو "الشكل" للدائرة الاجتماعية والثقافية، وفى هذا الشكل يعرف كل واحد منا موقعه ودوره من حيث التفاعل مع الآخر أو تكامله.

وكذلك عمليات التوحيد والتساند والتجانس والتناغم التى تحدثها التربية الجمالية فى البيئة الاجتماعية الثقافية تخلق بدورها وعيًا جماليًا فاعلاً وقادرًا على خلق "المنظومة" التى تعمل الدائرة الاجتماعية الثقافية وفقًا لها، فالمنظومة التى تشكلها ويحركها وعيًا جماليًا هى مورفولوجى Morphology ينصرف معناها إلى علم الصرف، علم الاشتقاقات، وتوليد الألفاظ من بعضها حيث يشتق من الفعل الثلاثى، فاعل ومفعول واسم فاعل .... إلخ أو "التشكل" حيث لا تتم تركيب المنظومة قبل تحديد المكونات فيها وتحديد صلاحية كل مكون، فالتركيب القائم على التساند والتجانس ليس تركيبا عشوائيا يحركه وعيا غير مدرب جماليا، إنما هو تركيب تتوزع فيه الأدوار ويتحدد فيه مستويات التفاعل، ودرجات التكامل ونسب التبادل والتفاعل بين المكونات كل هذا – بطبيعة الحال – عناصر ووقائع علمية، ولكن – كما رأينا – لا تنتظم هذه المعطيات العلمية تتشكل أو تتوافق وتتناغم وتصبح استراتيجية ما لم تتشكل هى أصلاً جماليًا، ومن ثم يتحدد الإطار العام للمجتمع أو للعالم، ويتضح بذلك دور الوعى الجمالى الذى أقصده من حيث كونه توجه وشعور كلى ينتظم العناصر فى كل مجال من مجالات التخصص فلكل تخصص سواء أكان علميًا أو اجتماعيًا أو اقتصاديًا "حسه الجمالى"، بل كل شىء له جماله – كما يقول الفيلسوف الإنجليزى برتراندرسل – وحتى حبات اللؤلؤ لا يظهر جمالها إلا فى شكل.

هكذا كانت خطة الانتقال من دائرة إلى أخرى هى خطة جمالية،

وكان الوعى الجمالى هو الفاعل المبدع الذى امتد بالأرض، وأعاد تشكل البيئة وتنظيمها من خلال تحويل أنهار معينة مثلاً أو خلق بحيرات فى أماكن صحراوية، أو عمل مصبات، أو جسور لتصل طرق مهجورة، كل هذه التأثيرات وغيرها، هى فاعلية جمالية خلقها الإبداع الخيالى للإنسان.

وفى ضوء ذلك، فإن المتمعن فى كيفية تفاعل الدوائر الثلاث يستطيع أن يدرك جيدًا لماذا تنتهى كثيرًا من مشروعات التنمية الاجتماعية أو الاقتصادية فى مجتمعنا، نهاية سلبية، كما سيدرك أيضًا الأسباب الكامنة وراء ما نراه من تخبط وتناقض وعشوائية فى المؤسسات المختلفة علمية أو فنية أو إعلامية، إنه الافتقار إلى وعى جمالى ينتظم من خلاله تفاعلنا مع الواقع فى شكل جمالى، بدلاً من هذه البعثرة للقدرات والإمكانات والرؤى والثروات.

ولعلى انتهى بالرد على ما بدأت به، أعتقد أن هذا التفصيل أوضح مدى عمق العبارة الموجزة التى قالتها السيدة الإنجليزية العجوز فى المظاهرة، حيث تتهم الرئيس الأمريكى بمعاداة الحياة على الأرض، وعدم القدرة على رعاية العالم الذى قدر لبلاده أن تقود مصيره الآن، وكأنها تدافع على نحو غير مباشر عن الإنسان الضعيف، والمهمش والفقير والمريض بسبب تلوث البيئة، فقد تلوثت مياه الشرب بالمخلفات الصناعية، وماتت الأسماك من حوادث التسرب النفطى، وزادت أمراض السرطان وغيره نتيجة المبيدات الحشرية والأسمدة الكيماوية، والمواد الحافظة للأغذية المعلبة، وكذلك نتيجة الاشعاعات النووية، وزادت المجاعات نتيجة استنزاف البيئة ومواردها بشكل غير مرشد والذى نتج عنه انحصار المساحات الخضراء وزحف الصحراء على سطح الكرة الأرضية، وما يتهدد الإنسان من فيضانات سوف تغرق مساحات شاسعة من الأرض وتتسبب فى كوارث بالغة الخطورة، وهو ما يؤكد التقرير الصادر عن المؤتمر الدولى المنعقد فى بروكسل حول مخاطر التقلبات المناخية، فهو يدق أجراس الخطر والإنذار لبداية وقوف البشرية على حافة تقلبات فى المناخات وظواهرها تهدد فى الأمد المتوحد والبعيد بتغيير جذرى لخريطة العالم الحالية وانكماش لرقعة اليابسة فوق المعمورة

بفعل ارتفاع درجة الحرارة فوق كوكب الأرض، هكذا استطاعت أصوات أفراد الشعوب أن تعبر فى صيحاتها ضد قوى الشر عن محنة كوكبنا الحقيقية، حيث يعيش عالمنا غير آمن، فهو ينتظر فى كل لحظة كارثة مما انعكس على نفسيته فى شكل أعراض مرضية يعانى منها أفراده مثل نقص إفرازات المعدة، وزيادة توتر العضلات وارتفاع الضغط الشريانى، ويكون ذلك مصحوبا بالتسارع فى تواتر الحركات النفسية كذلك ضعف فى سرعة الدورة الدموية يتجلى فى أطراف الإنسان ويصاحب ذلك نوع من الزيغ فى الرؤية، ناهيك عن الشعور بالاكتئاب.

لذلك تطرح بعض الأسئلة نفسها :

* هل إرهاب البيئة لا يدخل فيما يسمى الآن بإرهاب أمن العالم ؟ اعتقد إنها قضية هامة على المنظمات المدنية أن تناقشها .

* أما بالنسبة لنا فإن سؤالا مهمًا يطرح نفسه : فى أى دائرة نعيش ؟ هل نعيش فى الدائرة النفسية، ولم تتشكل الدائرة الاجتماعية الثقافية بعد بقيمها المختلفة، لأننا نفتقر إلى الوعى الجمالى المحرك لهذه الدائرة ومنظمتها فى الوقت نفسه، لأن هيئة وشكل الدائرة الاجتماعية الثقافية لا يتحدد إلا وفق وعى جمالى فاعل ومبدع ؟

أهم المصادر والمراجع

أولاً : المراجع الإنجليزية :

1 – Irwin Aitman & Martin Chemers : Culture and Environment, Brooks / Cole Publishing Company Monterey, California.

2- Mitchell Beazley : Caring For the Earth A strategy for Survival Published ; association with : UVCN, UNEP, WWF.

3- Eugene P. Odwn, Ecology : The link Between the Natural and the Social Sciences, New York 1980.

4- William L. Thomas (Ed), Man,s Role in Changing The Face of The Earth, University of Chicago Press 1956.

5- Peter Lamarque : The Aesthetic and Universal, From The Journal of Aesthetic Education, Vol, 33, Number 2, 1999.

6- Roxanne C. Farrar : Phenomenology as a Tool For Aesthetic Education in the Multicultural College Classrom.

7- Margaret H. Johnson : Phenomenological Method, Aesthetic, Experience, and Aesthetic Education.

هذان البحثان من :

The Journal of Aesthetic Education, Vol, 32 Spring 1998.

ثانيًا : المراجع العربية

1- د. سعيد محمد الحفار : الإنسان ومشكلات البيئة دولة قطر – جامعة قطر – 1981.

2- كارل بوبر : بحثا عن عالم أفضل ترجمة د. أحمد مستجير، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1996.

3- روبرت أورنشتاين وبول إيرليش : عقل جديد لعالم جديد، ترجمته د. أحمد مستجير، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2000.